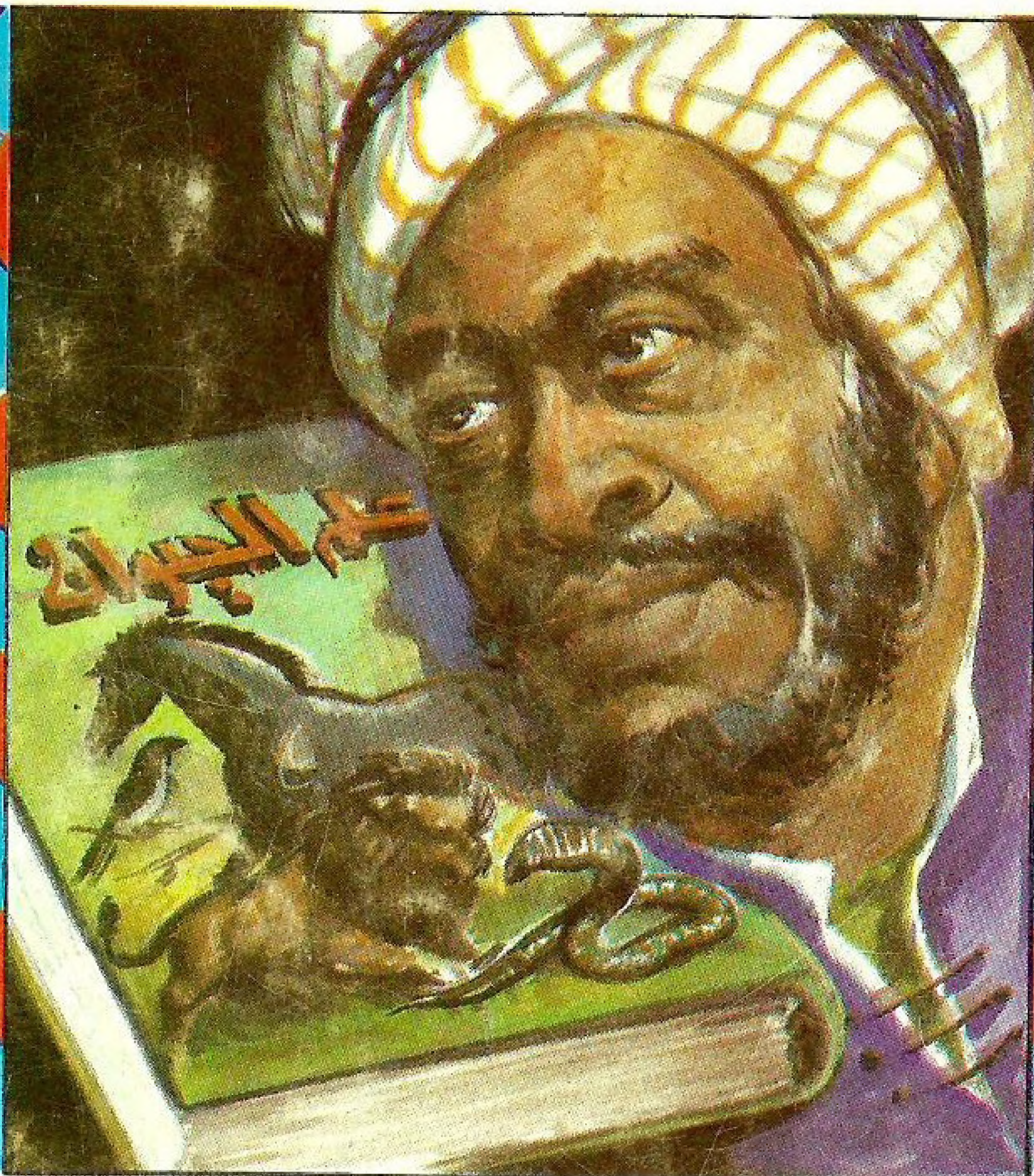


علماء
الغروب

١٧

المساحظ

عالم الحيوان



تأليف : سليمان فياض
رسوم : اسماعيل دياب

مركز الأهرام
للترجمة والنشر

١٩٨٠

علماء
العرب

الملاحظ

عالم الحيوان



سليمان فياض



ابنُ الجمال

غادرَ الصَّبِيُّ « عمرو بنُ بحرٍ بن محبوب » الكتابَ الذي
يحفظُ فيه كتابَ الله . ومشى عائداً على طريقِ سوقِ
« المربد » ، إلى حيِّ « كِنانة » الفقير ، الذي يسكن فيه ،
بمدينة البصرة .

الطبعة الأولى

١٤١١ هـ - ١٩٩١ م

جميع حقوق الطبع محفوظة

الناشر : مركز الأهرام للترجمة والنشر
مؤسسة الأهرام - شارع الجلاء - القاهرة
تليفون ٧٤٨٢٤٨ - تلكس ٩٢٠٠٢ يو ان

كان « عمرو » في السابعة من عمره ، وكان أسود اللون ،
بارز الجبهة ، جاحظ العينين ، أفطس الأنف ، عريضه .

وجد « عمرو » أمه قد عادت من السوق ، وقد باعت ما
شوته من أسماك نهر شط العرب ، وما صنعتها من الحلوى ،
وجلس « عمرو » حزيناً ، وقال لأمه :

— الأولاد في الكتاب يزعمون أن أبي كان زنجياً من
افريقية .

فضحكت الأم ، وقالت له :

— يا بني . كلنا مسلمون . وقد ساوى الإسلام بين العرب
وغير العرب ، فالكُل يحمل عقلاً وقلباً . والله يحاسبنا على
أعمالنا وحدها .

وسكتت أمه لحظة ، ثم قالت :

— أبوك يا بني ولد هنا ، في البصرة ، ونشأ عرَبِيّ اللسان
(اللغة) والقلب ، وكان يعمل جَمَّالاً لسيِّد من سادات

العرب ، هو « عمرو بن قلع » وكان عمرو رجلاً صالحاً ،
« رحيماً » ولذلك سمّاك أبوك باسمه : « عمرو » . ولتذكر
دائماً أن أباك ينتسب إلى بني فزارة . هكذا أكد لي .

وحاول « عمرو » أن يتذكر شكل أبيه ، فلم يذكر له
وجهها ، فقد ودّع الدنيا ، وتركه طفلاً صغيراً ، يعيش مع أمه
وأخيه ، في هذا البيت المتواضع من الخشب والطين .

وتناول « عمرو » غذاءه ، ثم غادر البيت إلى الخارج ،
ليَلْعَبَ مَعَ أَبْنَاءِ الْحَيّ ، بَيْنَ مِيَاهِ التُّهَيَّرَاتِ وَالْجَدَاوِلِ ، التي تشق
مدينة البصرة .

صديق الحيوانات

رأى « عمرو » أبناء الحيّ ، يَجْرُونَ أَمَامَ كَلْبٍ هَائِجٍ ،
يَعْوِي نَابِحاً ، وَيُطَارِدُ الْأَوْلَادَ ، وَالْأَوْلَادَ يَرْمُونَهُ بِالْأَخْجَارِ .
ورأى صاحبه « مهدي » واقفاً لا يتّبه إلى هياج الكلب ،
وتوجهه نحوه . فصاح به « عمرو » مُحَذِّراً . لكن الكلب كان
قد وثب على « مهدي » وعضّه أسفل عينه اليسرى ، ومزّق

خَدَّهُ بِأُتْيَابِهِ .

وَأَسْرَعَ « عَمْرُو » إِلَى صَاحِبِهِ ، وَحَاوَلَ أَنْ يُوقِفَ بِيَدِهِ دِمَاءَهُ الْغَزِيرَةَ ، إِلَى أَنْ جَاءَ أَبُوهُ مَعَ طَبِيبٍ مِنَ الْبَصْرَةِ لِإِسْعَافِهِ .

وَعَادَ « عَمْرُو » إِلَى الْبَيْتِ ، فَحَذَّرَتْهُ أُمُّهُ مِنْ إِغْضَابِ الْحَيَّوَانِ ، وَالْوُقُوفِ فِي وَجْهِهِ عِنْدَ غَضَبِهِ ، فَلَيْسَ لَهُ عَقْلٌ مِثْلُ الْإِنْسَانِ ، يُرْشِدُهُ إِلَى فِعْلِ الصَّوَابِ .

عِنْدَ الْعَصْرِ ، ظَلَّ « عَمْرُو » يَرْقُبُ سُلْحَفَاةً كَانَتْ لَهُ ، تَحْبُو عَلَى مَهَلٍ فِي سَاحَةِ الْبَيْتِ ، وَفَارًّا يَخْرُجُ مِنْ جُحْرِ الْجِدَارِ ، وَيَقْفُزُ هُنَا وَهُنَاكَ ، وَتُعْبَانًا يُطْلُ بِرَأْسِهِ ، مِنْ ثُقْبٍ فِي جِدَارٍ خَلْفِي لِلْبَيْتِ . وَوَرَاءَ الْجِدَارِ ، كَانَ مُسْتَنْقَعُ سَاكِنِ الْمِيَاهِ ، عَطْنٌ (كَرِيه) الرَّائِحَةِ . وَقَلِقَ « عَمْرُو » عَلَى سُلْحَفَاتِهِ ، خَائِفًا عَلَيْهَا مِنَ الثُّعْبَانِ ، فَنبه أُمُّهُ مِنْ غَفَوَتِهَا (نَوْمَتِهَا الْخَفِيفَةِ) وَأَرَاهَا الثُّعْبَانَ ، وَكَانَتْ عَيْنَاهُ تَلْمَعَانِ . فَقَالَتْ لَهُ أُمُّهُ :

— لَا تَخَفْ مِنْ هَذَا الثُّعْبَانِ فَهُوَ يُرِيدُ اصْطِيَادَ الْفَأْرِ ، وَلَا تَخَفْ عَلَى السُّلْحَفَاةِ فَسَوْفَ تَخْتَفِي فِي صَدَفَتِهَا ، حِينَ

تُحِسُّ بِالْخَطَرِ .

كَانَ الْوَقْتُ صَيْفًا ، شَدِيدَ الْحَرِّ ، وَشَاهَدَ عَمْرُو الْفَأْرَ وَهُوَ يَخْتَفِي بِسُرْعَةٍ فِي الْجُحْرِ ، وَالسُّلْحَفَاةَ وَهِيَ تَضُمُّ أَطْرَافَهَا إِلَيْهَا فِي صَدَفَتِهَا ، وَالثُّعْبَانَ وَهُوَ يَنْصَرِفُ عَائِدًا فِي جُوفِ جُحْرِهِ . وَفَكَّرَ « عَمْرُو » أَنَّ عَالَمَ الْحَيَّوَانِ عَالَمٌ عَجِيبٌ ، مَلِيءٌ بِالْغَرَائِبِ . وَكَانَتْ الْأُمُّ تُفَكِّرُ ، أَنَّ ابْنَهَا « عَمْرُو » لَا هَمَّ لَهُ إِلَّا مِرَاقَبَةُ الْفَرَاشِ ، وَالضَّفَادِعِ ، وَالْحَشَرَاتِ ، وَالطَّيُورِ ، وَوُجُوهِ الْحَيَوَانَاتِ ، بَلْ وَوُجُوهِ النَّاسِ ، وَأَحْوَالِ النَّاسِ . وَدَهَشَتْ الْأُمُّ حِينَ سَمِعَتْ وَلَدَهَا يَقُولُ لَهَا :

— حِينَ أُتِمَّ حِفْظُ الْقُرْآنِ . سَأَذْهَبُ إِلَى مَسْجِدِ الْبَصْرَةِ ، وَآتَعَلَّمَ الْعِلْمَ مِنْ شُيُوخِ الْبَصْرَةِ .

فَقَالَتْ لَهُ أُمُّهُ :

— لَا تَفَكَّرْ فِي ذَلِكَ الْآنَ . سَتَخْرُجُ مَعِيَ غَدًا الْجُمُعَةَ لِنَبِيْعٍ

مَعَا الْأَسْمَاكَ وَالسُّكَّرَ ، وَالْحَلْوَى ، أَنْتَ فِي مَكَانٍ ، وَأَنَا فِي مَكَانٍ ، لِتَرْبَحَ مَزِيدًا مِنَ الْمَالِ .

مدينة النخيل

كانت البصرة آنذاك ، ما تزال مدينةً مُشيدةً بالأحجار
البيضاء عامرةً بالنخيل ، على الضفة اليمنى من شط العرب .
وكانت قد صارت ميناءً بحرياً هاماً ، على الخليج العربي ، مثل
ميناء « سيراف » الفارسي ، تلتقي حولها الطرق البرية ، مع
الطرق المائية . وكان « عُقبة بن غزوان » قد بناها بعيدة قليلاً
عن النهر ، في زمن الخليفة « عمر بن الخطاب » ، قبل نحو
من مائة وخمسين عاماً . وصارت البصرة مركزاً ثقافياً هاماً ،
إلى جانب مدينتي « بغداد » و « الكوفة » يعيش فيها العرب
والفرس ، وقد صار مسجدها الجامع ساحةً لحلقات العلوم
اللغوية والدينية والأدبية والفلسفية ، بفضل شيوخ علماء عرفوا
بالمسجدين ، وكانت أرضها ترتفع فوق سطح البحر بمقدار
مترين .

وبالقرب منها كانت مدينة « الزبير » التي يرقد في ثراها
« الزبير بن العوام » . وكان « عمرو » مفتوناً في صباه بهذه
المدينة ، يحبُّ حرَّها الجاف صيفاً ، وبردها الصخراوي



القَارِسَ شِتَاءً ، وَيَنْتَظِرُ فِي لَهْفَةٍ ، كُلَّ شِتَاءٍ ، سُقُوطَ الْمَطَرِ ،
من سَحَابَةٍ عَابِرَةٍ .

المال والعلم

عادت أم « عمرو » وخذها إلى البيت آخر النهار . وتخلّف
عنها « عمرو » لِيَطْمِئَنَّ عَلَى صَدِيقِهِ « مَهْدِي » . وعادَ إليها
بعدَ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ، وَجَلَسَ حَزِينًا ، ثُمَّ قَالَ ضَاحِكًا ، وَسَاخِرًا :

— فَقَدْ شَيْخُنَا فِي الْكُتَّابِ دِرْهَمًا ، وَسَوْفَ يَحْزَنُ لَذَلِكَ ،
وَيَغْضَبُ ، وَقَدْ يَخْتَارُ أَيَّ أَحَدٍ لِيَضْرِبَهُ ، لِأَيِّ سَبَبٍ .

وَنَظَرَتْ إِلَيْهِ أُمُّهُ مُسْتَعْرَبَةً ، فَقَالَ لَهَا « عمرو » ، بِحُزْنٍ :

— صَاحِبِي « إِبْرَاهِيمُ بْنُ سَيَّار » ، عَادَ مَعَ أَهْلِهِ إِلَى مَدِينَةِ
« بُلْخ » فِي خُرَاسَانَ . وَلِذَلِكَ لَنْ يَأْتِيَ إِلَى الْكُتَّابِ ، وَلَنْ يَأْخُذَ
شَيْخَنَا دِرْهَمَهُ الشَّهْرِيِّ مِنْ أَبِيهِ ، وَيَحْزَنُ ، وَيَغْضَبُ ،
وَيَضْرِبُ .

فَضَحِكَتْ أُمُّ « عمرو » وَقَالَتْ :

— تَذَكَّرْ إِذَنْ أَنَّ الْمَالَ هُوَ كُلُّ شَيْءٍ يَا عَمْرُو .

فَقَالَ عَمْرُو صَائِحًا .

— لَا . الْمَالَ لَيْسَ كُلُّ شَيْءٍ . أَنَا أَحَبُّ الْمَالِ لِأَعِيشَ بِهِ .
لَكِنِّي أَيْضًا أَحَبُّ الْعِلْمِ .

فَقَالَتْ لَهُ أُمُّهُ بِأَسَى :

— وَأَيْنَ نَحْنُ مِنَ الْعِلْمِ يَا بَنِيَّ ؟ حَسْبُكَ حِفْظُ الْقُرْآنِ
يَا عَمْرُو .

فَقَالَ عَمْرُو :

— الْعَالِمُ أَيْضًا يَكْسِبُ مَالًا . وَالْخَلِيفَةُ يُرْتَّبُ رَوَاتِبَ شَهْرِيَّةٍ
لِلْعُلَمَاءِ ، وَالْعُلَمَاءُ يُؤَلَّفُونَ كُتُبًا ، فَيَنَالُونَ عَنْهَا مَالًا . وَسَوْفَ
أَصِلُ إِلَى الْاِثْنَيْنِ .

صديق غني

أَتَمَّ « عمرو » حِفْظَ الْقُرْآنِ ، وَاعْتَادَ أَنْ يَذْهَبَ مَعَ أُمِّهِ فِي
كُلِّ صَبَاحٍ ، لِيَبِيعَ مَعَهَا السَّمَكَ وَالسُّكَّرَ وَالْحُلُوى . ثُمَّ

يُسْرِع ، مَعَ الْعَصْرِ ، إِلَى مَسْجِدِ الْبَصْرَةِ ، وَيَجْلِس فِي حَلْقَةٍ مِنْ حَلَقَاتِ الْعِلْمِ ، يَسْتَمِعُ إِلَى شَيْخٍ مِنْ شُيُوخِ اللُّغَةِ ، وَيَكْتُبُ مَا يَسْمَعُهُ ، ثُمَّ يَعُودُ إِلَى الْبَيْتِ رَاضِيًا ، فَتَضُمُّهُ أُمُّهُ إِلَيْهَا ، وَتُغْنِي لَهُ حَتَّى يَنَامَ . وَعِنْدَيْهِ يُخْرِجُ الثُّعْبَانُ مِنْ شِقِّ الْجِدَارِ ، وَالْفَأْرُ مِنَ الْجُحْرِ ، وَتَسْحَبُ السُّلْحَفَةُ أَطْرَافَهَا إِلَى صَدَفَتِهَا ، وَتُطْفِئُ الْأُمُّ الْقِنْدِيلَ الْمُضَاءَ .

لَكِنَّ «عَمْرًا» لَمْ يَعُدْ يَذْهَبُ مَعَهَا إِلَى السُّوقِ مِثْلَمَا كَانَ ، فَفِي الْمَسْجِدِ التَّقَى «عَمْرُو» ذَاتَ يَوْمٍ بَثْرَى (غَنَى) مِنَ الْبَصْرَةِ ، اسْمُهُ «أَبُو عِمْرَانَ» . رَأَاهُ «أَبُو عِمْرَانَ» يَسْأَلُ الْعُلَمَاءَ ، وَيُجِيبُ الْعُلَمَاءَ ، فَأَعْجَبَ بِذَكَائِهِ فِي السُّؤَالِ ، وَسُرْعَتِهِ فِي الْجَوَابِ ، وَجَذَبَتْهُ إِلَيْهِ خِفَّةُ رُوحِهِ ، وَقُوَّةُ حُجَّتِهِ (بَرَاهِينُهُ وَأَدِلَّتُهُ) ، فَقَالَ لَهُ حِينَ انْفَرَدَ بِهِ :

— لَيْتَ مِثْلَكَ كَانَ وَلَدِي يَا بُنَيَّ . أَطْلُبُ الْعِلْمَ مَا عِشْتَ ، فَقَدْ تَصِيرُ يَوْمًا عَالِمًا قَدِيرًا ، أَوْ كَاتِبًا نَابِغًا .

وَفَرِحَ «عَمْرُو» بِمَا قَالَهُ لَهُ «أَبُو عِمْرَانَ» ، وَصَحَبَهُ إِلَى

بَيْتِهِ . وَأَطَعَمَهُ «أَبُو عِمْرَانَ» ، وَأَعْطَاهُ كُتُبًا مِنْ كُتُبِهِ . وَمِنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ ، شُغِلَ «عَمْرُو» بِالْكُتُبِ عَنِ الذَّهَابِ مَعَ أُمِّهِ إِلَى السُّوقِ . صَارَ يَسْحَبُ كِتَابًا مِنْهَا ، وَيَذْهَبُ لِيَقْرَأَهُ تَحْتَ أَشْجَارِ النَّخِيلِ ، وَرُبَّمَا عِنْدَ شَطِّ النَّهْرِ ، أَوْ مِيَاهِ الْخَلِيجِ ، وَيَعُودُ مَعَ الْعَصْرِ إِلَى الْمَسْجِدِ ، لِيَجْلِسَ بَيْنَ طُلَّابِ الْعِلْمِ . وَلِذَلِكَ حَزِنَتْ أُمُّ «عَمْرُو» ، فَقَدْ أَخَذَتْ الْكُتُبَ مِنْهَا وَلَدَهَا ، بَعِيدًا عَنِ السُّوقِ . وَقَرَّرَتْ أُمُّهُ أَنْ تُعْطِيَهُ دَرَسًا لَا يَنْسَاهُ .

كل كتب

عَادَ «عَمْرُو» مِنَ الْمَسْجِدِ ذَاتَ لَيْلَةٍ ، وَقَدْ اشْتَدَّ جُوعُهُ ، وَطَلَبَ مِنْ أُمِّهِ طَعَامًا ، فَلَمْ يَأْكُلْ شَيْئًا فِي نَهَارِهِ كُلِّهِ ، فَنَهَضَتْ الْأُمُّ ، وَعَادَتْ إِلَيْهِ بِطَبَقٍ كَبِيرٍ ، عَلَيْهِ كُتُبٌ وَكَرَارِيسُ ، وَدَهَشَ «عَمْرُو» وَقَالَ لِأُمِّهِ :

— مَا هَذَا ؛ أُرِيدُ طَعَامًا ، لَا كُتُبًا .

فَقَالَتْ لَهُ أُمُّهُ بِهِدْوٍ ، وَهِيَ تَجْلِسُ :

— كُلْ كُتُبًا . فَهَذِهِ الْكُتُبُ هِيَ الَّتِي نَكْسِبُهَا مِنْكَ .

بَيْتِهِ ، وَقَدَّمَ لَهُ طَعَامًا فَأَكَلَهُ ، وَشَبِعَ ، وَقَدَّمَ لَهُ كَيْسًا مَلِيئًا
بِالدَّنَانِيرِ ، قَائِلًا لَهُ :

— أَشْبَعُ أُمِّكَ بِهَذَا الْمَالِ . خَمْسُونَ دِينَارًا يَا عَمْرُو ، وَلَكَ
مِثْلُهَا مِنِّي أَوَّلَ كُلِّ هِلَالٍ (كل شهر) .

وَشَهَقَ « عَمْرُو » وَكَانَتِ الشَّمْسُ قَدْ أَشْرَقَتْ ، فَسَارَعَ
فَرِحًا إِلَى السُّوقِ وَاشْتَرَى دَقِيقًا ، وَزَيْتًا ، وَتَمْرًا ، وَلَحْمًا ،
وَعَادَ نَحْوَ الْبَيْتِ ، يَتَّبِعُهُ الْحَمَّالُونَ . كَانَتِ الْأُمُّ جَالِسَةً تَنْتَظِرُ
عُودَةَ « عَمْرُو » فِي قَلْقٍ ، تَلُومُ نَفْسَهَا ، طَوَالَ اللَّيْلِ ، لِقَسْوَتِهَا
عَلَى وَلَدِهَا .

وَدَفَعَ « عَمْرُو » بَابَ الْبَيْتِ ، وَرَأَتِ الْأُمُّ الْحَمَّالِينَ
يَدْخُلُونَ ، وَيُنْزِلُونَ مِنْ عَلَى ظُهُورِهِمْ مَا يَحْمِلُونَهُ . فَصَاحَتْ
فِي دَهْشَةٍ :

— مِنْ أَيْنَ لَكَ هَذَا يَا عَمْرُو ؟

وَشَعَرَ « عَمْرُو » أَنَّهُ قَدْ صَارَ فَجَاءَةً رَجُلًا ، فَقَالَ لَهَا
ضَاحِكًا :

— مِنَ الْكُتُبِ الَّتِي قَدِمْتُهَا لِي .. فِي طَبَقٍ !!



وَوَقَفَ « عَمْرُو » ، وَغَادَرَ الْبَيْتَ مُغْتَمًا (حزينًا) . وَذَهَبَ
إِلَى الْمَسْجِدِ ، فَوَجَدَ الشُّيُوخَ وَالطُّلَّابَ قَدْ غَادَرُوهُ ، فَجَلَسَ فِي
الْمَسْجِدِ حَزِينًا ، شَاخِبَ الْوَجْهِ مِنَ الْجُوعِ . وَانْتَبَهَ عَلَى صَوْتٍ
بِجَانِبِهِ ، يَقُولُ لَهُ :

— خَيْرًا يَا عَمْرُو .

والتفت « عَمْرُو » فَرَأَى صَدِيقَهُ « أَبُو عُمَرَانَ » وَأَخْبَرَهُ
« عَمْرُو » بِمَا فَعَلَتْهُ أُمُّهُ مَعَهُ . فَصَحَبَهُ « أَبُو عُمَرَانَ » مَعَهُ إِلَى

الطريق إلى البحرين

كان « عمرو » قد بلغ من العمر خمس عشرة سنة ، وقد صار « هارون الرشيد » خليفة . وأغراه راوية المربد « أبو جعفر العنبري » بالسفر معه إلى البادية في جزيرة العرب ، كئى يسمع أخبار العرب ، وأسماء العرب ، ولغة العرب ، من رواة العرب ، وكئى يسمع أغراب البادية ، وهم يحكون له عن حياتهم ، ما لم يكتبه أحد بعد .

ووجد « عمرو » نفسه في قافلة ، متجهة صوب الجنوب ، ووجد نفسه وحيداً ، لنفور المسافرين من شكله ، وسميهم ينادونه : يا جاحظ ، لجحوظ عيئه ، حتى صار ذلك النداء لقباً له ، لكن « عمراً » مالبث أن بهرهم جميعاً بقدرته على الحديث ، والمسامرة ، والملاطفة في الكلام ، وكان بينهم مشاهير من مشاهير زمانهم ، من الشعراء والرواة ، وأدهشهم بإبداء رأيه في أشعار الشعراء ، والمقارنة بين معاني الشعراء . وصاروا يثحئون عنه ليجلس معهم ، على طعام من جنب

وبيض ، وزيتون ، وتمر . وكسب « عمرو » ود الجميع ، ولم تكن القافلة قد بلغت بعد « بحر الحفير » على بعد أربعة أميال من البصرة .

كانت القافلة متجهة إلى أرض البحرين (بلاد الخليج العربي كلها) . وكان الطريق معشياً ، والسما صافية ، لكن الحر كان شديداً ، وبحر مياه الخليج يزيد من رطوبة الجو على طول الساحل ، فتضيق منها الأنفاس . وبلغت القافلة نهاية مرحلة من رحلتها . وحاول « عمرو » أن يجمع عبثاً ، من البدو ، أخباراً من أخبار عرب « طسم » « وجديس » الأقدمين ، فقد بادوا في الزمن القديم ، واندثرت بعدهم أخبارهم .

وانفصل « أبو جعفر العنبري » عن القافلة ، إثر زيارته لديار قومه في البحرين عائداً إلى البصرة ، فبعث معه « عمرو » برسائل إلى أمه ، وأصدقائه في البصرة ، وإلى صديقه « أبي عمران » . وواصل هو رحلته مع القافلة .

وتعرف إلى شاب اسمه « عبد الرحمن » كان يصحب أباه الأمير « عبد الملك بن صالح » في تلك الرحلة . كان رجلاً

عَمَلًا قَاطِبًا طَوِيلًا ضَخْمًا ، مَهِيبَ الْمَنْظَرِ ، كَبِيرَ الْعِمَامَةِ ، كَأَنَّهُ
قَائِدُ جَيْشٍ .

وَأَعْجَبَ الْأَمِيرُ بِإِنْشَاءِ « عَمْرُو » لِلشَّعْرِ وَحِكَايَاتِهِ لِلْأَخْبَارِ
وَالنَّوَادِرِ وَقَرَّرَ إِسْتِضَافَتَهُ عَلَى نَفَقَتِهِ طَوَالَ رِحْلَتِهِ ، وَأَعْطَاهُ فَرَسًا
مِثْلَ فَرَسِ ابْنِهِ « عَبْدِ الرَّحْمَنِ » وَصَارَا يَتَسَابَقَانِ بِهِمَا ، وَيَصِيدَانِ
مِنْ فَوْقِهِمَا ، ظَبَاءً ، وَغَزْلَانًا ، وَأَرَانِبَ بَرِّيَّةً .

دنيا البادية

وَوَاصَلَتِ الْقَافِلَةُ رِحْلَتَهَا عَابِرَةً دِيَارَ نَجْدٍ إِلَى الْمَدِينَةِ وَمَكَّةَ .
وَفِي تِلْكَ الرَّحْلَةِ ، رَأَى « عَمْرُو » الْأَمَاكِينَ الَّتِي دَارَتْ بِهَا أَيَّامُ
الْعَرَبِ ، وَغَزَوَاتِ الرُّسُولِ ، وَسَرَائِهَا الصَّحَابَةِ ، وَرَأَى الزُّهُورَ
الَّتِي تَغْنَى بِهَا الشُّعْرَاءُ ، زُهُورَ الْعَرَارِ ، وَالْخُزَامَى ، وَشَقَائِقَ
النُّعْمَانِ . وَفَتَحَ « عَمْرُو » أُذُنَيْهِ يَسْمَعُ حِكَايَاتٍ عَنِ الْمَجَانِينِ
وَالْعُشَّاقِ ، وَالْمَغْفَلِينَ وَالْحَمَقَى ، وَالْأَذْكِيَاءَ وَالذُّهَّاءَ ، وَالنُّبَلَاءَ
وَالْكُرَمَاءَ ، وَاللُّصُوصَ وَالشُّطَّارَ ، وَالْحَيَوَانَاتِ وَالطُّيُورَ ،
وَلِيَعْرِفَ أَخْبَارَ الْأَقْدَمِينَ ، مِنْ قِصَصِ وَأَسَاطِيرِ وَخُرَافَاتِ ،

مِمَّا تَعْيِيهِ ذَاكِرَةُ الْأَغْرَابِ ، عَنْ أَهْلِ الْيَمَنِ وَنَجْدٍ ، وَالْحِجَازِ
وَالْبَحْرَيْنِ ، وَالْفُرسِ وَالْأَخْبَاشِ . وَكَانَ « عَمْرُو » يَكْتُبُ
مُلَاحَظَاتِهِ ، عَنْ كُلِّ مَا يَرَاهُ ، وَيُدَوِّنُ فِي أَوْرَاقِهِ خَيْرَ مَا يَسْمَعُهُ
مِنْهَا .

وَعَادَ « عَمْرُو » إِلَى الْبَصْرَةِ ، بَعْدَ عَامَيْنِ كَامِلَيْنِ ، وَيَشْكُرُ
الْأَمِيرَ وَوَلَدَهُ ، وَيَعِدُهُمَا بِالزِّيَارَةِ فِي قَصْرِهُمَا الشَّامِخِ بِالْبَصْرَةِ ،
وَيُسَارِعُ بِالْعُودَةِ إِلَى أُمِّهِ وَأُخْتِهِ ، وَيَغْسِلُ عَنْ بَدَنِهِ غُبَارَ
الْأَسْفَارِ .

البصرة تتغير

وَجَدَ « عَمْرُو » الْبَصْرَةَ وَقَدْ تَغَيَّرَتْ فِي غِيَابِهِ ، وَالْمَسْجِدَ وَقَدْ
فَقَدَ كَثِيرًا مِنْ شُيُوخِهِ وَعُلَمَائِهِ ، فَقَدْ شَدُّوا الرِّحَالَ إِلَى بَغْدَادَ ،
لِيَكُونُوا بِالْقُرْبِ مِنَ الرَّشِيدِ وَالْوُزَرَاءِ ، وَبَيْنَ الرَّاحِلِينَ كَانَ
الرَّاهِطُ « أَبُو عُبَيْدَةَ » وَاللَّغَوِيُّ : « الْأَصْمِغِيُّ » وَالْكَاتِبُ :
« سَهْلُ بْنُ هَارُونَ » وَوَجَدَ أَشْعَارَ « أَبِي نُوَّاسٍ » تَمَلُّا الْبَصْرَةَ ،
يُرْوِيهَا لِأَهْلِ الْبَصْرَةِ ، الرَّاهِطِينَ : « الْجَمَّازِ » ، « وَأَبُو هِفَّانِ »

ووجد دُعاة المذاهب الدينية يتجادلون عند صديقه
« أبي عمران » في مسائل علم الكلام ، ويتصدى لمناقشتهم
جميعاً صديقه « إبراهيم بن سيار » بعد عودته إلى البصرة ، وقد
اشتهر في البصرة ، بلقب « النّظام » لأنّ أباه كان ينظم الحرز
عقوداً في البصرة .

حيرة عمرو

في الليل ، بدأ الشتاء بهجمه مفاجئة ومبكرة . هبت ريح
سريعة اضطدمت بالسحب ، فصبت على البصرة أمطاراً
غزيرة ، كان « عمرو » قد بلغ من العمر ثمانى عشرة سنة ،
وبات ليلته ساهراً ، والقنديل مطفأ يفكر في غده : كيف يشق
طريقه في الحياة ، فلن يبقى عائلة على « أبي عمران » إلى الأبد ؟
وأى درب من دروب الأدب والعلم ، يختار أن يسير فيه ؟
وكانت زخات (دفعات) المطر تطرق سقوف بيوت البصرة
وتسيل بها الميازيب في الطرقات ، وتمنى لو أن صديقه
« النّظام » لم يغادر البصرة الى بغداد ، لكى يشاوره في أمره .
ولم يصل « عمرو » بعد إلى قرار .



وظل « عمرو » يحضر ندوات الأدب والعلم ، في قصور :
آل سليمان ، وأبي عمران ، والأمير عبد الملك ، ويشارك فيها
بالحوار والمناظرات ، وبلغ من شغفه بالقراءة أنه كان يؤجر
دكاكين الوراقين ، ويظل ساهراً فيها طوال الليل ، وهي مغلقة
الأبواب ، وقد امتلأ فضاؤها بدخان القناديل .

وودّع « عمرو » صديقه « عبد الرحمن » فقد تولى أبوه
الأمير إمارة « نطاكية » بالشام . وشعر « عمرو » بالفراغ .

وَالْوَحْدَةَ . وَظَلَّ « عَمْرُو » يَحْيَا وَيَعِيشُ مِنْ رَوَاتِبِهِ الَّتِي يَنَالُهَا
كُلَّ هَلَالٍ ، مِنْ صَدِيقِهِ « أَبِي عَمْرَانَ » .

حلم عمرو

كَانَ « عَمْرُو » قَدْ بَلَغَ الْعِشْرِينَ مِنَ الْعُمُرِ ، حِينَ فُجِعَ بَوفاةِ
صَدِيقِهِ « أَبِي عَمْرَانَ » ، وَأَذْرَكَ عَمْرُو أَنْ عَلَيْهِ أَنْ يَعُولَ نَفْسَهُ ،
بِالْعَوْدَةِ إِلَى السُّوقِ لِبَيْعِ السَّمَكِ وَالسُّكَّرِ وَالْحُلُوى مَعَ أُمِّهِ ،
أَوْ يَجْلِسَ لِيَكْتُبَ ، وَيُؤَلِّفَ كُتُباً لَمْ يَكْتُبْ مِثْلَهَا ، قَبْلَهُ ، أَحَدٌ
سِوَاهُ ، يَكْتُبُ عَنْ كُلِّ مَا عَرَفَهُ وَسَمِعَهُ وَوَعَاهُ ، وَيَتَجَاوَزُ
بِمَا يَكْتُبُهُ كِتَابَاتِ : « عَبْدِ الْحَمِيدِ الْكَاتِبِ » وَ « ابْنِ الْمُقَفَّعِ »
وَ « سَهْلِ بْنِ هَارُونَ » يَكْتُبُ كِتَابَاتٍ فَرِيدَةً ، يَعْرِفُهَا كُلُّ مَنْ
يَقْرُؤُهَا لِأَوَّلِ وَهْلَةٍ ، وَيَقُولُ : هَذَا هُوَ أُسْلُوبُ الْجَاحِظِ ،
وَلَا أَحَدٌ سِوَاهُ .

وَقَبْلَ أَنْ يَشْرَعَ « عَمْرُو » فِيمَا عَزَمَ عَلَيْهِ ، جَاءَهُ « قُمَامَةُ »
رَسُولُ الْأَمِيرِ « عَبْدِ الْمَلِكِ » يَدْعُوهُ لَزِيَارَتِهِ فِي مَقَرِّ إِمَارَتِهِ
بِأَنْطَاكِيَةِ (مَدِينَةِ فِي الشَّامِ) فَأَعَدَّ « عَمْرُو » نَفْسَهُ لِلْسَفَرِ ،

لِيَرَى الْعِرَاقَ ، وَالشَّامَ ، وَمِصْرَ ، وَيَكْسِبَ الْمَزِيدَ مِنَ الْمَعَارِفِ
عَنِ الدُّنْيَا ، بِمَا تَرَاهُ الْعَيْنُ ، وَتَسْمَعُهُ الْأُذُنُ .

عالم عجيب

فِي بَغْدَادَ رَأَى « عَمْرُو » قُبَّةَ خَضِرَاءَ ، فِي رَأْسِهَا فَارِسٌ عَلَى
فَرَسٍ مُتَوَثِّبٍ ، تُعْرِفُ بِقُبَّةِ « تَاجِ بَغْدَادِ » ، وَرَأَى شَوَارِعَ بَغْدَادَ
مُزْدَحِمَةً بِأَهْلِ بَغْدَادَ ، فِي ثِيَابِهِمُ الْعَبَاسِيَّةَ السَّوْدَاءَ ، يَرْكَبُونَ
الْحَمِيرَ ، وَالْجُمَالَ ، وَالْخُيُولَ ، وَيَسِيرُونَ هَانِئِينَ فِي جَوَانِبِ
الطَّرِيقَاتِ . وَرَأَى « قَصْرَ الْخُلْدِ » عَلَى الشَّاطِئِ الْغَرْبِيِّ لِنَهْرِ
دِجْلَةَ الَّذِي يَعِيشُ فِيهِ « هَارُونُ الرَّشِيدُ » وَرَأَى قُصُوراً أُخْرَى
تُشِيدُ لِلْبَرَامِكَةِ ، وَمُعَسَّكَرَاتِ جُيُوشِ الْخُلَفَاءِ بِحَيِّ
« الرُّصَافَةِ » .

وَاتَّجَهَ قُمَامَةُ بِعَمْرُو إِلَى دِيَارِ بَكْرِ فِي الشَّامِ ، وَكَانَتْ عَيْنَا
عَمْرُو لَا تَكْفَانِ عَنِ التَّأَمُّلِ فِيمَا حَوْلَهُ مِنْ طُيُورٍ وَحَيَوَانَاتٍ ،
وَيَعْجَبُ لِتِلْكَ النَّيْرَانِ الَّتِي تَنْبَعُثُ وَحَدَّهَا مِنْ شُقُوقِ الْأَرْضِ ،
وَيَنْبَهَرُ بِمَشَاهِدِ الثَّلُوجِ فِي قِمَمِ جِبَالِ شَدِيدَةِ الْبَرْدِ ، وَيَحَارُّ فِي

مُتَابِعَةُ أَنْوَاعٍ عَجِيبَةٍ مِنَ الْأَسْمَاكِ ، وَالْكَرَاكِيِّ ، وَطُيُورِ
الْعُقْبَانِ ، وَالصُّقُورِ ، وَالْغُرْبَانِ ، وَحَيَوَانَاتِ الْبَرَارِيِّ : الضَّبِّ ،
وَالذَّبُّبِ ، وَالظُّرْبَانِ ، وَالثَّعْلَبِ وَالْخَنْزِيرِ ، وَابْنُ آوَى ، وَتُرُوعُهُ
آثَارُ قَدِيمَةٍ ، لِأَقْوَامٍ بَادَتْ حَضَارَتُهُمْ ، مِنْ الْبَابِلِيِّينَ ،
وَالسُّومَرِيِّينَ ، وَالْأَكَادِيِّينَ ، وَالْأَشُورِيِّينَ ، وَيُشَاهِدُ أَلْوَانًا مِنَ
الْمَعَادِنِ وَالْأَحْجَارِ الْمَلُونَةِ .

وَكَانَ « قِمَامَةٌ » يَرْقُبُ « عَمْرًا » فِي دَهْشَةٍ وَهُوَ يَكْتُبُ
عَمَّا يُشَاهِدُهُ ، أَوْ يَسْأَلُ النَّاسَ عَمَّا يَرَاهُ سُؤَالًا إِثْرَ سُؤَالٍ .

وَكَانَ « عَمْرُو » طَوَالَ رَحَلَتِهِ مَشْغُولَ الْبَالِ ، بِحَاوِلِ أَنْ يَنْظِمَ
قَصِيدَةً يَمْدَحُ بِهَا الْأَمِيرَ عَبْدَ الْمَلِكِ ، وَيَفَكِّرُ فِي ذَلِكَ كَثِيرًا طَوَالَ
اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، وَالْفَرَسُ يَسِيرُ عَابِرًا دِيَارَ مَا بَيْنَ النَهْرَيْنِ ، إِلَى دِيَارِ
الشَّامِ .

شاعر فاشل

فِي مَجْلِسِ حَاشِدٍ بِالْأَعْيَانِ وَالْعُلَمَاءِ وَالْأَدَبَاءِ ، وَقَفَ الْجَاحِظُ
فِي قَصْرِ الْإِمَارَةِ بِأَنْطَاكِيَّةٍ ، يُنْشِدُ الْقَصِيدَةَ الَّتِي نَظَمَهَا وَحَفِظَهَا

فِي مَدِيحِ الْأَمِيرِ عَبْدِ الْمَلِكِ ، لَكِنَّ الْقَصِيدَةَ لَمْ تُعْجِبِ الْأَمِيرَ ،
وَلَا أَحَدًا مِنَ الْحَاضِرِينَ ، فَقَدْ لَزِمَ الْجَمِيعُ الصَّمْتَ وَجَلَسَ
عَمْرُو خَجَلًا ، وَقَدْ أَدْرَكَ أَنَّهُ لَيْسَ بِشَاعِرٍ ، وَلَكِنْ يَكُونُ شَاعِرًا ،
عَلَى حُسْنِ إِنْشَادِهِ لِلشُّعْرِ .

فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ أَثَرَ « عَمْرُو » أَنْ يَكُونَ رَاوِيَةً ، فَرَاخَ يَحْكِي
الْقِصَصَ وَالنَّوَادِرَ وَالتَّحَفَ وَالطَّرَائِفَ ، مِنْ مُشَاهَدَاتِهِ وَقِرَاءَاتِهِ ،
فَأَثَارَ الْإِعْجَابِ وَالدَّهْشَةِ فِي نُفُوسِ الْحَاضِرِينَ ، وَبَدَأَ الرِّضَا
فِي وَجْهِ الْأَمِيرِ .

وَخَرَجَ الْأَمِيرُ عَلَى رَأْسِ جَيْشٍ لِحَرْبِ الرُّومِ فِي آسِيَا
الصُّغْرَى (تُرْكِيَا الْآنَ) . وَأَنَابَ عَنْهُ فِي غِيَابِهِ ابْنُهُ الْأَمِيرُ
« عَبْدُ الرَّحْمَنِ » وَشُغِلَ « عَبْدُ الرَّحْمَنِ » عَنْ « عَمْرُو » بِأُمُورِ
الْإِمَارَةِ فِي النَّهَارِ ، فَرَاخَ يَقْضِي نَهَارَهُ بَيْنَ الْأَسْوَاقِ وَالْبَسَاتِينِ ،
وَفِي اللَّيْلِ يَجْلِسُ « عَمْرُو » وَ« عَبْدُ الرَّحْمَنِ » يَسْتَمْعَانِ لَغَنَاءِ
الْمَغْنِيَّاتِ ، وَعَزْفِ الْقِيَانِ (الْعَازِفَاتِ) عَلَى الْآلَاتِ الْوَتْرِيَّةِ
وَالنَّقَّارَاتِ ، مِنْ طُبُولٍ وَدُفُوفٍ وَأَعْوَادٍ .

وَفِي إِحْدَى اللَّيَالِي رَاقَتْ لِعَمْرُو فِتْنَةٌ مِنْ فِتْنَاتِ الْقَصْرِ ،

فَزَوَّجَهَا لَهُ «عبد الرحمن» ونَجَحَ «عمرو» بماله وهداياه ،
وَحَلَاوَةَ حَدِيثِهِ ، وَخَفَّةَ رُوحِهِ ، فِي اسْتِمَالَتِهَا إِلَيْهِ ، وَرِضَاهَا
بِهِ ، وَغَادَرَ «انطاكية» معها ، وَجَابَا فِي رِحْلَةٍ طَوِيلَةٍ ، أَرْجَاءَ
الشَّامِ ، وَدَلَّتَا النَّيْلَ . ثُمَّ عَادَا بَعْدَ عَامٍ إِلَى «انطاكية» .

رسالة من البصرة

لم يكد «عمرو» يَصِلْ إِلَى قَصْرِ الْأَمِيرِ عَبْدِ اللَّهِ ، حَتَّى
وَجَدَ رِسَالَةً قَادِمَةً لَهَا مِنَ الْبَصْرَةِ ، بِرِيدِ الْحَمَامِ الزَّاجِلِ .
كَانَ صَدِيقُهُ «مهدى» ، يُخْبِرُهُ فِي رِسَالَتِهِ بِوَفَاةِ أُمِّهِ ، وَزَوَاجِ
أُخْتِهِ مِنْ رَجُلٍ فِي حَيِّ كِنَانَةٍ ، فَسَارَعَ «عمرو» بِمَغَادَرَةِ
«انطاكية» تَارِكاً وَرَاءَهُ زَوْجَتَهُ ، فِي رِعَايَةِ «عبد الرحمن»
خَوْفاً عَلَيْهَا مِنْ مَشَاقِّ الطَّرِيقِ ، وَقُطَاعِ الطُّرُقِ ، مُخْفِياً فِي نَفْسِهِ
شُعُورَهُ بِالْعَجْزِ عَنِ الْإِنْفَاقِ عَلَيْهَا فِي الْبَصْرَةِ ، وَهِيَ الَّتِي عَاشَتْ
فِي رَفَاهِيَةٍ (نعيم) قُصُورِ الْأَمْراءِ . وَجَلَسَتْ زَوْجَتُهُ «بدور»
حَزِينَةً فِي الْقَصْرِ ، تَبْكِي حَظَّهَا مَعَهُ ، وَبُعْدَهَا عَنْهُ .

نجدة الصديق

بَلَغَ «عمرو» مِنَ الْعُمُرِ اثْنَيْنِ وَعَشْرِينَ سَنَةً ، وَصَارَ يَمْشِي
فِي شَوْرَاعِ الْبَصْرَةِ مُرْتَدِياً جَبَّةَ سُودَاءَ ، وَعُمَامَةً بَيْضَاءَ ، مِثْلَ
أَهْلِ بَغْدَادَ ، وَفِي قَدَمَيْهِ نَعْلَانِ غَالِيَتَانِ . وَقَدْ صَارَتْ لَهُ لِحْيَةٌ
مُشَدَّبَةٌ ، لَا تُخْفِي أُذُنَيْهِ الصَّغِيرَتَيْنِ .

لَمْ تَمْضِ سِتْوَى شُهُورَ ، وَ«عمرو» لَا يَزَالُ يَحَاوِلُ الْكِتَابَةَ ،
حَتَّى وَفَدَ عَلَى الْبَصْرَةِ الْأَمِيرُ «عبد الرحمن» فِي طَرِيقِهِ إِلَى الْحَجِّ
مُصْطَحِباً مَعَهُ زَوْجَتَهُ «بدور» وَبُهِتَ «عمرو» حِينَ عَرَفَ
أَنَّهَا فِي الشَّهْرِ الْأَخِيرِ مِنَ الْحَمْلِ ، وَبَدَأَ حَائِراً ، فَكَيْفَ سَيَعُولُهَا ،
هِيَ وَمَنْ تَلِدُهُ ، وَأَبْوَابُ الرِّزْقِ مَا تَزَالُ مَسْدُودَةً فِي وَجْهِهِ .
وَفَرَّجَ عَنْهُ «عبد الرحمن» مِخْنَتَهُ فَأَعْطَاهُ أَلْفَ دِينَارٍ ، قَائِلاً لَهُ :
— دَبَّرَ أَمْرَكَ الْآنَ بِهَذَا الْمَالِ . وَسُنْدَبَرُ لَكَ يَتِياً فَسِيحاً يُطِلُّ
عَلَى النَّهْرِ .

وَتَنَدَّرُ النَّاسُ فِي الْبَصْرَةِ بِزَوَاجِ «الجاحظ» لِحُسْنِ حَظِّهِ ،
وَسُوءِ حَظِّهَا ، وَلَمْ يُبَالِ عَمْرُو بِهِمْ ، فَقَدْ كَانَ بِزَوْجَتِهِ سَعِيداً ،

وَوُلِدَ لَهُ وَلَدٌ ، لَكِنَّ اللَّهَ اخْتَارَهُ إِلَى جِوَارِهِ بَعْدَ شُهُورٍ ، وَعِنْدَئِذٍ
آثَرَتْ « بَدُورٌ » فِرَاقَ « عَمْرُو » وَسَافَرَتْ فِي قَافِلَةٍ عَائِدَةٍ إِلَى
قَصْرِ الْأَمِيرِ فِي « أَنْطَاكِيَّةٍ » .

الخديعة لا تدوم

إِثْرَ رَحِيلِ « بَدُورٍ » تَحَدَّى « عَمْرُو » أَحْزَانَ الْفِرَاقِ ،
وَخَوْفَ الْفَقْرِ ، وَالْوَجَلَ (الْخَوْفَ) مِنَ الْكِتَابَةِ ، وَرَاحَ يَكْتُبُ
رِسَائِلَ فِي مَوْضُوعَاتٍ شَتَّى ، يَحْمِلُ أَسْلُوبَهَا بِصُمْتِهِ وَخَدِّهِ .
لَكِنْ مَا كَتَبَهُ لَمْ يَلْقَ قَبُولًا لَدَى الْوَرَّاقِينَ ، لِأَنَّهُ لَمْ يَجِدْ رَوَاجًا
بَيْنَ النَّاسِ . فَأَتَيْنَ اسْمُهُ مِنْ أَسْمَاءِ : ابْنِ الْمُقَفَّعِ ، وَسَهْلِ ابْنِ
هَارُونَ ؟ وَمَنْ يَعْرِفُ قِيمَةَ الْجَاحِظِ ، سِوَى صُحْبَتِهِ مِنَ الْعُلَمَاءِ
وَالْأَدَبَاءِ ؟ !

وَهَدَيْتُهُ عَبْقَرِيَّتَهُ إِلَى حِيلَةٍ . صَارَ يُعَالِجُ كِتَابَاتِهِ التَّالِيَةَ لَتَبْدُوَ
قَدِيمَةً بِالتُّرَابِ ، وَالرَّمَادِ وَوَهَجِ النَّارِ ، وَيُقَدِّمُهَا إِلَى الْوَرَّاقِينَ ،
عَلَى أَنَّهَا مِنْ تَأْلِيفِ ابْنِ الْمُقَفَّعِ ، أَوْ سَهْلِ بْنِ هَارُونَ ، وَيَزْعُمُ
أَنَّهَا نُسْخَةٌ نَادِرَةٌ وَفَرِيدَةٌ وَكِتَابَاتٌ مَجْهُولَةٌ ، لِهَذَا أَوْ ذَاكَ ، وَأَنَّهُ



عَثَرَ عَلَيْهَا ، أَوْ اشْتَرَاهَا ، خِلَالَ أَسْفَارِهِ فِي الْبُلْدَانِ . وَجَازَ
الْخِدَاعُ عَلَى الْوَرَّاقِينَ ، فَاشْتَرَوْهَا مِنْهُ بِمَا يَرْضَاهُ مِنْ مَالٍ .

لَكِنَّ الْخَدِيعَةَ لَمْ تَدُمْ طَوِيلًا ، فَقَدْ أَنْكَرَ « سَهْلُ بْنُ هَارُونَ »
مِنْ بَغْدَادَ ، نِسْبَةَ مَا نُسِبَ إِلَيْهِ مِنْ كِتَابَاتٍ ، وَأَصْبَحَ
« الْجَاحِظُ » حَدِيثَ الْبَصْرَةِ بِفَعْلِهِ ، بَلْ حَدِيثَ الْعِرَاقِ بِأَسْرِهِ .

وَاسْتَنْكَرَ الْكُلَّ مَا فَعَلَهُ ، ثُمَّ تَحَوَّلَ الْاسْتِنْكَارُ إِلَى إِعْجَابٍ
بِبِرَاعَتِهِ ، وَالتَّمَسُّوْا لَهُ الْأَعْذَارَ لِحَاجَتِهِ لِلْمَالِ ، وَبَدَأَ لَهُمْ فِي
النِّهَايَةِ كَاتِبًا لَا نَظِيرَ لَهُ ، وَأَقْبَلَ الْوَرَّاقُونَ عَلَيْهِ يَطْلُبُونَ كِتَابَاتِهِ
الَّتِي اسْتَهَانُوا بِهَا أَوَّلَ الْأَمْرِ ، عَنْ الشُّطَّارِ وَاللَّصُوصِ ،
وَالْحَمَقَى وَالْأَذْكِيَاءِ ، وَرَاحَ الْأَدْبَاءُ يَتَحَدَّثُونَ عَنْ عَجَائِبِ فَنِّهِ
فِي الْكِتَابَةِ ، وَالْعُلَمَاءُ يَتَعَجَّبُونَ مِنْ غَزَارَةِ مَا فِي كُتُبِهِ مِنْ
مَعْلُومَاتٍ ، وَطَرَائِفَ وَنَوَادِرَ ، وَمُمْلَاحِظَاتٍ دَقِيقَةٍ عَنِ الْحَيَاةِ
وَالْأَحْيَاءِ ، وَأَقْبَلَ عَلَى كُتُبِهِ عَامَّةُ الْقَارِئِينَ ، لِسُهُولَةِ اسْتُلُوبِهِ ،
وَيُسْرِ أَلْفَاظِهِ ، وَبَسَاطَةِ صُورِهِ وَتَشْبِيهَاتِهِ ، وَوَضُوحِ فِكْرِهِ ،
وَقُرْبِ مَعَانِيهِ ، وَسُرْعَةِ فَهْمِهِ ، وَبَدِيعِ اسْتِطْرَادَاتِهِ إِلَى الْوَرَاءِ ،
وَقَفَزَاتِهِ الْمَجْنَحَةِ فِي كُلِّ اتِّجَاهٍ .

غروب شمس

حِينَ غَابَتْ شَمْسُ الْقَرْنِ الْمِيلَادِيِّ الثَّامِنِ ، كَانَ « الْجَاحِظُ »
قَدْ بَلَغَ مِنَ الْعُمْرِ خَمْسَةً وَعِشْرِينَ عَامًا ، وَكَانَتْ دَوْلَةُ الْأَغَالِبَةِ
قَدْ اقْتَطَعَتْ لَهَا مُلْكًا مِنْ جِسْمِ الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ ، فِي تُونِسَ
وَشَرْقِيَّ الْجَزَائِرِ ، وَكَانَتِ الدَّوْلَةُ الْإِدْرِيسِيَّةُ الشَّيْعِيَّةُ قَدْ بَلَغَتْ مِنَ
الْعُمْرِ أَحَدَ عَشَرَ عَامًا فِي الْمَغْرِبِ وَغَرْبِيَّ الْجَزَائِرِ ، وَمَعَ ذَلِكَ كَانَ
مُلْكُ الْعَبَّاسِيِّينَ عَرِيضًا ، وَكَانَتْ امْبِرَاطُورِيَّتُهُمْ زَاهِرَةً ، تَتَصَاغَرُ
إِلَى جَانِبِهَا دَوْلُ بَنِي أُمَيَّةٍ فِي الْأَنْدَلُسِ ، وَالْأَدَارِسَةُ وَالْأَغَالِبَةُ فِي
الشَّامِ الْإِفْرِيقِيِّ ، وَكَانَ الْعَرَبُ قَدْ ارْتَدَّوْا فِي فُتُوحِهِمْ عَنِ
الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ وَجَنُوبِ فَرَنْسَا ، وَكَانُوا لَا يَزَالُونَ يُنَاقِشُونَ
بِالْعَارَاتِ سَوَاحِلَ إِيطَالِيَا وَبَلْقَانَ ، وَجَزَائِرَ الْبَحْرِ الْمُتَوَسِّطِ .
وَكَانَ عُثْمَانُ بَغْدَادَ قَدْ اكْتَمَلَ ، بَعْدَ إِنْشَائِهَا بِثَانِ وَثَلَاثِينَ سَنَةً .

وشروق شمس

وَحِينَ أَشْرَقَتْ شَمْسُ الْقَرْنِ الْمِيلَادِيِّ التَّاسِعِ ، كَانَتْ الثَّقَافَةُ
وَالْفَلَسَفَةُ الْإِغْرِيقِيَّةُ قَدْ وَجَدَتْ أَرْضًا خَصْبَةً ، فِي شَرْقِ الْعَالَمِ

الإسلامي ، لم تجد مثلها في الإمبراطورية البيزنطية ، وكذلك كان حظ الثقافة والمعارف الأدبية الفارسية والهندية ، والمترجمة إلى العربية ، من الفهلوية والسنسكريتية .

وصارت لدى المسلمين بفضل المترجمين ، الكتب الأمهات الأصول في تلك الثقافات الثلاث . وبفضل هذه الترجمات ، ووجدت ثقافة إسلامية « دولية » عربية اللغة ، إسلامية الدين ، شارك فيها العرب وغير العرب من المسلمين الفرس والنصارى ، مثلما كانوا يشاركون في الحكم ، وفي حياة المجتمع العباسي ، وزرّاء وعلماء ، وأدباء وتجّاراً ، وقواداً وجنوداً ، ومزارعين وحرفيين . وفقد العرب الخُلص ، طوال نصف قرن ، ما كان لهم من نفوذ وسيطرة في عهد الدولة الأموية ، وصاروا جزءاً من كل إسلامي كبير .

وكان حصّاد تلك الثقافات المترجمة ، يصل إلى الجاحظ بالبصرة ، فيقرأها بالعربية التي يتقنها ، ويعرف أسرارها ، ويتمثلها بعقله العبقري الراجح .

بين الحذر والجرأة

وتوافد الأمراء ورسل الأمراء إلى البصرة ، يستميلون قلم « الجاحظ » لخدمة أغراضهم السياسية ، ويعرضون عليه المناصب والوظائف في بلاطاتهم القريبة أو النائية . لكن « الجاحظ » احتاط لنفسه من مزالق السياسة ، والصراع بين الفرس والعرب ، وبين الأمراء ، وآثر أن يكتب لذات الكتابة ، ويكتب ما يكتبه للناس ، فلا يقع فيما وقع فيه « ابن المقفع » ، ويلقى مثله مصيراً مُحزناً .

وبهذه الروح ، تجرّأ « الجاحظ » فكتب كتابه الكبير : « الإمامة » (الخلافة) لِلخاصّة والعامة .

وتجرّأ فكتب آراءه في الفرس الذين يراحمون العرب في ديارهم ، ويسخرون من فكرهم وتاريخهم وعاداتهم .

وتجرّأ فكتب آراءه في الشعراء والعلماء والأدباء ، وبينهم أساتذته له وأصدقائه .

وتجرّأ فكتب في علم الكلام (التوحيد) ، وشرح

بإخلاص آراء صديقه ، مفكر فلسفة الاعتزال الرائد :
« إبراهيم بن سيار النظام » .

وكان الجاحظ حذراً فيما يكتبه ، يُعْطِي صَرَاحَتَهُ بِخَفَةِ ظَلِّهِ ،
وصدقه بالنوادير والفكاهات ، ويذكر الشيء ونقيضه . وصار
شعار أبي عثمان : « عِشْ كَمَا تُرِيدُ أَنْتَ ، وَفَكِّرْ كَمَا تُرِيدُ أَنْتَ ،
لَا كَمَا يُرِيدُكَ النَّاسُ ، وَتَفَنَّنْ لَكُنْ لَا تُغْضِبْ بِصَرَاحَتِكَ أَحَدًا
مِنَ النَّاسِ » .

دعوة إلى بغداد

وحدثت نكبة البرامية ، وقد بلغ « الجاحظ » من العمر
سبعاً وعشرين سنة وروعته أخبارها ، وشعر بالأسى لمصرع
صديقه الأمير « عبد الملك بن صالح الهاشمي » بسبب صليته
بالبرامية ، ثم جاءت وفاة « هارون الرشيد » وقد بلغ من العمر
ثلاثاً وثلاثين سنة ، وتلاحقت إثر وفاته ، صراعات دامية ، بين
الأخوين : « الأمين » و « المأمون » دامت ست سنوات ،
حلاً بعدها وجه الخلافة للمأمون ، وقد بلغ الجاحظ من العمر

ثمانى وثلاثين سنة وهو مقيم بالبصرة ، يلزمها ولا يغادرها
إلا لحضور سوق المربد الأدبي ، كلما أقيم وانعقد .

وكان الخليفة « المأمون » محباً وراعياً للثقافة والأدب ،
والفكر والعلم ، ومنحازاً إلى فكر المعتزلة ، مثل « النظام » ،
و« واصل بن عطاء » ، ومن أجل هذا الحب أنشأ « بيت
الحكمة » ، ليكون مكتبة « بغداد » بل مكتبة الثقافة الإسلامية
الأولى ، ومكتبة للدنيا بأسرها ، وجمع فيها كل ما ألف
بالعربية ، أو تُرجم إليها ، في عهد أبيه « هارون الرشيد » وفي
عهد جدّه « أبو جعفر المنصور » وبينها كانت كتب : « أبو
عثمان الجاحظ » .

وبهرت كتب الجاحظ الخليفة المأمون ، فأرسل إليه ، بمن
يصحبه معزراً مكرماً من البصرة إلى بغداد ، وكان « الجاحظ »
قد بلغ من العمر أربعاً وأربعين سنة .

حرارة اللقاء

دخل الجاحظ على « المأمون » في قصر الخلد ، فراه جالساً

على سرير من الأبنوس ، مُوشًى بالذهب ، ووجد بجانبه نُسَخاً من كُتُبِهِ هُوَ ورَسَائِلُهُ بالعشرات ، وقال له « المأمون » وهو يُجلسه بجانبه :

— لم أعرف حقاً كيف يحيا الناس في زماننا ، وفيهم يفكرون ، إلا من كُتُبِكَ يا أبا عثمان .

وتحدّث « الجاحظ » إلى « المأمون » ، فأضحكه حيناً ، وأحزنه حيناً ، وأثار دهشته حيناً ، من غرائب ما يرويه ، وسعة ما يعرفه ، فقال له :

— ها أنت يا أبا عثمان ترتفع في عيني فوق كُتُبِكَ كُلِّهَا . فأنت تكتب كما تتحدّث ، وتتحدّث كما تكتب ، وفي الحالين تُفيد وتُمتع .

وأمر « المأمون » فرُتّب للجاحظ عطاء شهري من المال ، وأنزل ضيفاً على وزيره القاضي « أحمد بن دؤاد » إلى أن يستفيد منه في ديوان من دواوين الخلافة ، ولم يعص الجاحظ للمأمون أمراً ، بعد حرارة هذا اللقاء .

لكنّ الفتن نشبت من جديد في فارس والعراق ، وشغل « المأمون » بأمورها عن « الجاحظ » وخشي « الجاحظ » على نفسه من شرّ تلك الفتن ، وأعاصير السياسة ، فسارع بالعودة إلى البصرة ، غير حزين على شيء .

رئيس الديوان

عادت الأمور إلى الاستقرار ، بعد عامين ، وأرسل « المأمون » في طلب الجاحظ مرة أخرى ، فغادر البصرة إلى بغداد . وفوجيء « الجاحظ » بالمأمون يعهد إليه بديون الرسائل (إدارة الرسائل من الخليفة لولاته ولرؤساء الدول الأخرى) وأمره بحمل مسئولية هذا الديوان من غده .

وتسلّم الجاحظ وظيفته الجديدة ، خلفاً للكاتب : « سهل بن هارون » ووجد الديوان مزدحماً بكتّاب فارغى العقول ، أنيق الثياب ، ظرفاء الحديث . وعبثاً حاول الجاحظ التودّد إليهم ، بالمازحة ورواية النواذر ، بل لقد سمعهم وهم يتهامون عن وضاعة أصله ، وقبح شكله ، ويّتهم كان الكاتب

« أحمد بن عبد الوهاب » يقودُ ويوجّه حَمَلَةَ السُّخْرِيَةِ مِنْهُ .
وذهب « الجاحظ » إلى المأمون بعد أيامٍ قليلة ، وطلب منه
إعفاءه من هذا المنصبِ المضيّع لوقتِ مثله ، بل وقدم إليه رسالةً
نثريةً تحملُ عنوان « الترييع والتدوير » في هجاء « ابن عبد
الوهاب » وقرأها المأمون ، وضحك كثيراً لما بها من هجاءٍ
ساخر ، ونقده لاذع . وقال المأمون للجاحظ :

— سخرت النثر للهجاءٍ لأول مرة ، وعهدنا في الهجاء أن
يكون شِعْراً .

وعظم قدرُ « الجاحظ » في نظرِ « المأمون » ، وأعفاه من
منصبه ، وأمره بالبقاء قريباً منه في بغداد ، يكتب ما يشاء ،
وفيما يشاء ، وعما يشاء ، آمناً إلى حمايته له ، ورضاه عنه ،
ووصله « المأمون » بعطاياه وهداياه ، وآثره بحضورِ مجالسه مع
العلماء والأدباء .

واختار الجاحظ صُحْبَةَ الوزير القاضي « أحمد بن دؤاد »
ليكون كافله وراعيه ، في عواصف السياسة ، وبين مطامع
الأدباء ومطامع العلماء .

خير معلم

في بغداد أنجز الجاحظ كتابيه الهامين : « المحاسن
والأضداد » و : « البيان والتبيين » وأهدى ثانيهما إلى صديقه
وراعيه القاضي « أحمد بن دؤاد » وكان في أربعة أجزاء .

وقرأ « ابن دؤاد » الخيرُ بعُلوم اللغة والدين بيان
« الجاحظ » ورأه النثرُ الفنى في هذا الكتاب ، وحسن
اختياراته ، وبديع نقده ، وثراؤه اللغوي والأدبي الفذ .

كان الكتابُ يضمُّ نماذجَ مُختارةً في الأدب والإنشاء ،
ويتحدثُ عن صنوف (أنواع) البيان ، وعن السجع ، وعن
الشعر والشعراء ، وعن أحاديث رسول الله ، وعن الخطب
والخطباء ، ويروى أخبار النساك (المنقطعون للعبادة)
والزهاد ، ويسوق العديد من مواضع اللحن (التحريف) في
اللغة ، وينقدُ مذهب الشعوية في طعنهم على خطباء العرب ،
وبمنطق فلاسفة الاعتزال (فلاسفة يحكمون العقل في فهم
الدين) .

وقال ابن دؤاد للجاحظ حين رآه :

— كُنْتُ فِي حَيْرَةٍ مِنْ أَمْرِي : كَيْفَ أَعْلَمُ وَلَدِي مَنَظِقَ
العقل ، وَفُنُونَ الْقَوْلِ وَالْأَدَبِ ، فَجَاءَ كِتَابُكَ يَا أَبَا عُثْمَانَ ،
لِيُنْقِذَنِي مِنْ هَذِهِ الْحَيْرَةِ . فَهُوَ خَيْرٌ مُعَلِّمٌ لِنَاشِئَةِ الشَّبَابِ .

سباق مع الزمن

وَفِي بَغْدَادَ ، أَقَامَ الْجَاحِظُ مُمْتَعاً بِسَنَوَاتِ عُمُرِهِ ، يُؤَلِّفُ
الْكُتُبَ وَالرِّسَائِلَ ، وَيُنَظِّرُ الْعُلَمَاءَ وَيُعَلِّمُ الطُّلَّابَ ، وَيَلْقَى
مُعَاصِرِيهِ مِنَ الْكُتَّابِ : « سَهْلُ بْنُ هَارُونَ » وَ« هُشَامُ بْنُ مُحَمَّدٍ
الْكَلْبِيُّ » وَ« أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْمُثَنَّى » وَ« أَبُو الْحَسَنِ الْمَدَائِنِيُّ »
وَيُودِّعُ بَيْنَ عَامٍ وَآخَرَ مَعَ الْمُوَدَّعِينَ ، هُشَاماً ، ثُمَّ أَبَا عُبَيْدَةَ ،
ثُمَّ أَبَا الْحُسَيْنِ ، ثُمَّ سَهْلَ بْنَ هَارُونَ ، خِلَالَ عَشْرِ سَنَوَاتٍ ،
وَيَشْعُرُ بِالْغَيْرَةِ فِي وَدَاعِهِمْ ، فَقَدْ تَرَكَ كُلُّ مِنْهُمْ وَرَاءَهُ لِلنَّاسِ
عَشْرَاتِ الْكُتُبِ ، فَقَدْ بَلَغَتْ كُتُبُ الْمَدَائِنِيِّ وَرِسَائِلُهُ مِائَتَيْنِ
وَأَرْبَعِينَ كِتَاباً وَرِسَالَةً ، وَوَضَعَ الْجَاحِظُ لِنَفْسِهِ هَدَافاً أَنْ يُنْجِزَ
مِنَ الْمُؤَلَّفَاتِ ، مَا لَمْ يَنْجِزْ مِثْلَهُ أَحَدٌ مِنَ الْكُتَّابِ ، عَدَداً وَقِيَمَةً ،

وقد بدأ يشعر أنه في سباق مع الزمن .

وَكَانَ الْجَاحِظُ قَدْ بَلَغَ مِنَ الْعُمُرِ ثَمَانِيَةَ وَخَمْسِينَ عَاماً ، حِينَ
صَحَبَهُ « الْمَأْمُونُ » كَعَادَتِهِ فِي أَسْفَارِهِ ، طَلِباً لِلْأُنْسِ بِهِ ،
وَالِاسْتِمَاعِ إِلَيْهِ . وَفِي قَرْيَةٍ بِالْقُرْبِ مِنْ مَدِينَةِ « طَرْسُوسَ » ،
وَدَّعَ « الْمَأْمُونُ » دُنْيَا النَّاسِ ، وَبَكَاهُ « الْجَاحِظُ » مَعَ الْبَاكِينَ
لِحِزْمِهِ وَحُبِّهِ لِلْعِلْمِ وَالْعُلَمَاءِ .

وَعَادَ « الْجَاحِظُ » إِلَى بَغْدَادَ ، وَبَايَعَ مَعَ الْمُبَاعِينَ لِلْخَلِيفَةِ
الْمُعْتَصِمِ شَقِيقَ الْمَأْمُونِ ، وَانْتَقَلَ مَعَهُ إِلَى الْعَاصِمَةِ الْجَدِيدَةِ لِلدَّوْلَةِ
« سُرَّ مِنْ رَأْيِ » (سَامِرَاءُ) وَظَلَّ الْوَزِيرُ الْقَاضِي ابْنُ دَوَّادَ
يَكْفُلُ الْجَاحِظَ وَيُرْعَاهُ .

صديق لدود

طَوَالَ السَّنَوَاتِ الَّتِي عَاشَهَا « الْجَاحِظُ » فِي بَغْدَادَ كَانَ
« النَّظَامُ » قَرِيباً مِنْهُ ، حَمِيمَ الصَّدَاقَةِ لَهُ ، لَكِنْ « النَّظَامُ » فِي
« سُرَّ مَنْ رَأَى » بَدَأَ يَجْفُو صَاحِبَهُ ، وَصَارَ كِلَاهُمَا يَشْكُو
الْآخَرَ لِلنَّاسِ ، فَقَدْ صَارَ « النَّظَامُ » يَغَارُ مِنَ التِّفَافِ النَّاسِ حَوْلَ

« الجاحظ » ، ومن سُرْعَة لسان « الجاحظ » في المناقشة ،
ونصاعة بيانه ، وقدرته الباهرة على التأليف . ونأى كلاهما عن
صاحبه .

وفي « سر من رأى » لم يعد « ابن دؤاد » الوزير المقرب من
المعتصم مثل وزيره الآخر « ابن الزيات » . ونصح « ابن
دؤاد » الجاحظ بالقرب من « ابن الزيات » خوفاً عليه من الكيد
له ، والتكيل به ، ووجد « الجاحظ » أن لا مفر له من الامتثال
كارها لنصح « ابن دؤاد » ، وشعر بالقهر لعجزه حتى عن
العودة إلى البصرة ، والبعد عن صراعات الحاشية من رجال
« المعتصم » كان « ابن الزيات » هو الآخر كاتباً وعالماً ، وأديباً
وشاعراً ، وسياسياً ماهراً ، وكان متقلب الهوى ، حاد المزاج ،
يُصارغ شعوره بالغيرة من « الجاحظ » ، سريع الرضا ، سريع
الغضب ، ويبلغ به غضبه حد الحقد المدمر .

وتوَدَّ « الجاحظ » إلى ابن الزيات يُثني عليه بالمديح ،
ويلطفه في الحديث متفادياً بمهارة غيرته وغضبه ، وتقلب
مزاجه وحديثه ، حرصاً على عدم مناصرته على خصومه ، فينال

كراهيتهم ، وتربصهم به ، حين تتغير الأحوال .

وعكف « الجاحظ » على تأليف كتاب موسوعي آخر ، عن
عالم « الحيوان » ومن الحيوان : الطيور ، والحشرات ،
والهوام ، وناس من بني الإنسان ، ليرفعه ويهديه إلى صديقه
اللدود : « ابن الزيات » .

ينابيع

كان اليونانيون أسبق من العرب في الكتابة عن « الحيوان » ،
كتب عنه « ديمقريطس » و « أرسطو » ، وقد نقل
« ابن البطريق » كتاب أرسطو « الحيوان » إلى العربية . وفي
زمن « الجاحظ » وقبله كان هناك علماء آخرون من العرب ،
كتبوا عن « الحيوان » عن الإبل ، والخيول ، والوحوش ،
والطيور ، والنحل ، والحشرات . وبينهم كان : السجستاني ،
والأصمعي ، وابن الأعرابي ، وابن الكلبي ، والنضر بن شميل .
لكن كتبهم كانت في جوهرها كتباً لغوية ، لم تُؤلف للعلم ،
ولم تبحث في طبائع الحيوان ، وغرائزه وسلوكه ، وأحواله

وعَادَاتِهِ ، وَلِذَلِكَ جَعَلَ « الْجَاهِظ » هَمَّهُ الْأَكْبَرُ أَنْ يَكُونَ كِتَابُهُ
كِتَاباً عَرَبِيّاً جَامِعاً ، فِي « عِلْمِ الْحَيَوَان » .

وَلَأَنَّ « الْجَاهِظ » كَانَ كَاتِباً وَصَاحِبَ مَدْرَسَةٍ فِي الشَّرْ
الْفَنِّي ، فَقَدْ جَعَلَ بَيْنَ مَنَابِعِهِ فِي التَّأْلِيفِ ، تَبَعُ الْقُرْآنِ وَحَدِيثِ
الرَّسُولِ ، وَتَبَعُ الشَّعْرِ الْعَرَبِيِّ ، وَبِخَاصَّةٍ ، الشَّعْرَ الْبَدَوِيِّ ،
الَّذِي قَارَبَتْ مَعَارِفُهُ عَنِ الْحَيَوَانِ مَعَارِفَ الْفَلَاسِفَةِ وَالْأَطِبَّاءِ ،
وَتَبَعُ كِتَابِ « الْحَيَوَانِ » لِأَرِسْطُو ، وَتَبَعُ الْمَنَازِعَاتِ الْكَلَامِيَّةِ
لِعُلَمَاءِ الْكَلَامِ ، عَنْ خَلْقِ اللَّهِ ، وَتَبَعُ الْخَبَرَةَ الشَّخْصِيَّةَ عَنْ عَالَمِ
الْحَيَوَانِ ، الَّتِي مَرَّ بِهَا فِي أَسْفَارِهِ بَيْنَ الْبَدْوِ وَالْحَضَرِ ، وَفِي
الصَّحَارَى وَالْوُدْيَانِ ، وَالَّتِي اسْتَقَاها بِأَسْئَلَتِهِ ، وَمُخَالَطَتِهِ ،
لِلصَّيَادِينَ وَالْحَوَاةِ ، وَالْمَزَارِعِينَ وَالْمَلَاحِينَ ، وَبَدَوِ الصَّحَارَى فِي
الْمَفَازَاتِ وَالْفَلَوَاتِ ، وَعُلَمَاءِ الْجُغَرَاْفِيَا وَالتَّارِيخِ وَالْأَجْنَاسِ
وَالْأَعْرَابِ وَالْأَطِبَّاءِ .

الضفدع والضب

وَقَلَّبَ « ابْنُ الزِّيَّاتِ » ، صَفَحَاتِ مُجَلَّدَاتِ الْجَاهِظِ عَنْ



« الْحَيَوَان » ، وَتَوَقَّفَ « ابْنُ الزِّيَّاتِ » عِنْدَمَا كَتَبَهُ الْجَاهِظُ عَنْ
الضَّفَادِعِ ، وَأَخَذَ يَقْرَأُ :

« وَأَنَا ذَاكِرٌ مِنْ شَأْنِ الضَّفَدَعِ مِنَ الْقَوْلِ مَا يَحْضُرُ مِثْلِي :
فَالضَّفَدَعُ لَا يَصِيحُ وَلَا يُمَكِّنُهُ الصِّيَاخُ حَتَّى يُدْخَلَ حَنَكُهُ الْأَسْفَلَ
فِي الْمَاءِ ، فَإِذَا صَارَ فِيهِ بَعْضُ الْمَاءِ صَاحَ ، وَلِذَلِكَ لَا تَسْمَعُ
لِلضَّفَادِعِ نَقِيْقاً ، إِذَا كُنَّ خَارِجَاتٍ مِنَ الْمَاءِ . وَالضَّفَادِعُ تَنُقُّ ،
فَإِذَا أَبْصَرَتِ النَّارَ أَمْسَكَتْ . وَالضَّفَادِعُ تَرَاهَا كِبَاراً وَصِغَاراً
فِي عِدَدٍ لَا يُحْصَى فِي غَبٍّ (أَعْقَابِ) الْمَطَرِ ، إِذَا كَانَ الْمَطَرُ

دِيمَةً (دائماً) لا ينقطع ، ثم نَجِدُهَا في المواضع التي ليسَ
بِقُرْبِهَا بَحْرٌ وَلَا نَهْرٌ ، وَلَا حَوْضٌ وَلَا غَدِيرٌ ، وَلَا وَادٍ وَلَا بَيْرٌ ، وفي
الأَرْضِ الجُرْدَاءِ وَفَوْقَ المسَاجِدِ ، حتَّى زَعَمَ كثير من أَهْلِ
الجَسَارَةِ عَلَى الْعُلَمَاءِ أَنهَا كَانَتْ فِي السَّحَابِ . والضَّفَادِعُ من
الْخَلْقِ الذِي لَا عِظَامَ لَهُ . وتَزْعُمُ الْأَعْرَابُ أَنَّ الضَّفْدَعَ كَانَ
ذَا ذَنْبٍ ، وَأَنَّ الضَّبَّ سَلَبَهُ إِيَّاهُ ، وَذَلِكَ فِي خُرَافَةٍ من خُرَافَاتِ
الْأَعْرَابِ . وَيَقُولُ آخَرُونَ إِنَّ الضَّفْدَعَ إِذَا كَانَ صَغِيرًا كَانَ
ذَا ذَنْبٍ فَإِذَا خَرَجَتْ لَهُ يَدَانِ أَوْ رِجْلَانِ سَقَطَ . وَالْأُسْدُ فِي
مَوَارِدِ الْمَاءِ تَأْكُلُ الضَّفَادِعَ أَكْلًا شَدِيدًا . والضَّفَادِعُ تَعْظُمُ
(تَكْبُرُ حَجْمًا) وَلَا تَسْمَنُ . وفي سَوَاحِلِ فَارِسَ نَاسٌ
يَأْكُلُونَهَا .

الشيخ والعصفور

وَقَلَّبَ « ابن الزيات » صفحاتَ الْكِتَابِ وَقَرَأَ هَذِهِ الْحِكَايَةَ
عَنْ « الشيخ والعصفور » :

« وفي المثل : أَنَّ شَيْخًا نَصَبَ لِلْعَصَافِيرِ فَخًا ، فَارْتَبَنَ

(شَكَكَنَ) بِهِ وَبِالْفَخِّ ، وَضَرَبَهُ الْبَرْدُ فَكَلَّمَا مَشَى إِلَى الْفَخِّ ،
وَقَدْ انْضَمَّ الْفَخُّ عَلَى عُصْفُورٍ ، قَبَضَ الشَّيْخُ عَلَيْهِ ، وَدَقَّ
(كَسَرَ) جَنَاحَهُ ، وَأَلْقَاهُ فِي وِعَائِهِ وَدَمَعَتْ عَيْنَاهُ مِمَّا يَصُكُّ
(يَضْرِبُ) وَجْهَهُ مِنْ بَرْدِ الشَّمَالِ (رِيحِ الشَّمَالِ) فَتَوَامَرَتْ
(تَشَاوَرَتْ) الْعَصَافِيرُ بِأَمْرِهِ ، وَقُلْنَ : لَا بَأْسَ عَلَيْكُنَّ . فَإِنَّهُ
شَيْخٌ صَالِحٌ رَحِيمٌ رَقِيقُ الدَّمْعَةِ . فَقَالَ عُصْفُورٌ مِنْهَا :
« لَا تَنْظُرُوا إِلَى دُمُوعِ عَيْنَيْهِ ، وَلَكِنْ : انظُرُوا إِلَى صَنَعِ
يَدَيْهِ » ... » .

وَوَجَدَ « ابن الزيات » نَفْسَهُ يَضْحَكُ مِنْ قَلْبِهِ ، وَقَالَ
لِلْجَاحِظِ :

— عَجِيبُ أَمْرٍ كِتَابُكَ هَذَا يَا أَبَا عُثْمَانَ جَمَعْتَ فِيهِ فِي آيٍ
وَاحِدٍ بَيْنَ الْعِلْمِ وَالْأَدَبِ ، وَالْحَقِيقَةِ وَالْخَيَالِ . وَلَسَوْفَ تَبْقَى
ذِكْرَاكَ عَلَى الْأَيَّامِ بِهَذَا الْكِتَابِ ، وَيَبْقَى اسْمِي مَعَ اسْمِكَ ،
بِإِهْدَائِهِ إِلَيَّ فِطْبُ نَفْسِي يَا أَبَا عُثْمَانَ ، فَلَنْ يَصِلَ إِلَيْكَ مِنِّي
سُوءٌ .

عودة الخائف

ومات « المعتصم » وجاء « الواثق » خليفة بعده وكان « الجاحظ » قد بلغ من العمر ثمانى وستين سنة . وواصل « ابن الزيات » البطش بخصومه ، « والجاحظ » يعظه فلا يتعظ ، حتى وقعت الجفوة بينهما ، فاستأذنه « الجاحظ » فى العودة إلى البصرة ، فأذن له ، فغادر « سر من رأى » بعد أيام ، مودعاً صديقه : « ابن دؤاد » .

وفى البصرة كانت قد صارت للجاحظ ضيعة ، اسمها : « الجاحظية » . وفى البصرة جاءه الخبر ب وفاة صديقه « النظام » فبكاه وحيداً فى الليل . وفى البصرة لم يشعر الجاحظ بالأمن من « ابن الزيات » ، ولذلك عكف على تأليف كتاب عن « البخلاء » وكان قد بلغ من العمر ثلاثاً وسبعين سنة ، وكتب عليه إهداءً إلى الوزير « ابن الزيات » ، وحمله معه من البصرة ، إلى « سر من رأى » .

ودخل « الجاحظ » المدينة راجياً وخائفاً فوجد « الواثق » قد

ودع الدنيا ، وولى الأمر من بعده الخليفة « المتوكل » ، الذى أبقى « ابن الزيات » وزيراً له إلى حين ، وكان حانقاً عليه ، لمعارضته فى أن يكون خليفة .

وتقبل « ابن الزيات » كتاب الجاحظ ، وبأسطه وأرضاه . وقال له : إن بينى وبين المتوكل من الأسباب ما يكفى لقتل أمة ، « وابن دؤاد » معه الآن يدبر له مكيده ضدى ، فهو الآخر يكرهنى ويغار منى . ونصحه الجاحظ بالانسحاب من الوزارة ، فقال له باستهانة :

— دعنا نعيش يومنا يا أبا عثمان . ولنقرأ معاً كتابك « البخلاء » .

نقض الطب

فى اليوم الأربعين من هذا اللقاء ، دخل الجند على « ابن الزيات » ، وقبضوا عليه ، ونهبوا قصره . وأفلح « الجاحظ » فى التسلل والفرار ، وقفز من فوق سور القصر فالتوت قدمه ، وسارع بالفرار من « سر من رأى » فى ظلام الليل ، وقد دب

في نفسه الخَوْفُ حتَّى من « ابن دُوَاد » ولكنَّ الجُنْدَ أَدْرَكُوهُ
في الطَّرِيق ، وحملوه مقيَّدَ القدمين إلى صديقهِ القديم ، فأمر
بكسر قيوده ، وصحبهُ الخدم إلى الحَمَّام فَاغْتَسَلَ ، وعادَ إلى
مجلس « ابن دُوَاد » وقد ارتدى ثوباً جديداً ، ولبس خُفّاً أنيقاً ،
وأجلسه القاضي بجانبه ، وقال له :

— الآن أعد إلينا أحاديثك الحُلوة يا أبا عُثْمَانَ .

وبقي « الجاحظ » في رِعاية « ابن دُوَاد » إلى أن أصابه مَرَضُ
« الفالج » (الشلل النصفي) ولازم سرير مَرَضِهِ الأخير . وظلَّ
« الجاحظ » يزوره في مَرَضِهِ الطَّويل ، وبدأ « ابن دُوَاد » يشكو
من الطَّبِّ ، وعجز الأطباء عن علاجه .

ولكنَّ يَسْرَى « الجاحظ » عن صديقه ، ألف له كتاباً أهداه
إليه ، وكأنه كان يعبر فيه عن حاله ، وجعل عنوانه : « نقضُ
الطَّبِّ » تحدّث فيه عن قُصور الطَّبِّ في زَمَانِهِ ، وعجز الأطباء
وسردَ الحكايات والروايات .

وحمل « الجاحظ » الكتابَ إلى صديقه ، وجلس بجانبه يقرأ



لَهُ في كتابه ، ويضحك « ابن دُوَاد » من نوادره عن الطَّبِّ
والأطباء .

بلغ « الجاحظ » من العمر خمساً وثمانين سنة ، وبدأ يشعرُ
بداء « النُّقرس » يسرى في قدمه وساقه ، فاستأذن صديقه « ابن
دُوَاد » لِيَسْتَرِيحَ في مزرعته « الجاحظية » بالبصرة . وبعد عامين
توالت أحداث مفرجة على « الجاحظ » .

أصيب « الجاحظ » بمرض الفالج ، وجاءته الأخبارُ بوفاة

صديقه « ابن دؤاد » ومصرع الخليفة المتوكل على يد حراسه من الأتراك ، ولأزم « الجاحظ » غُرْفَةَ نَوْمِهِ ، وكان يتردد عليه لخدمته والقراءة له ، وكتابة ما يمليه عليه ابن أخته « يموت » وعاش تسع سنّات ، إلى أن بلغ الخامسة والتسعين من عمره ، في عهد الخليفة المعتز .

منارة مضيئة

كانت الجيوش المسلمة الجرارة قد تضاءلت في زمن « الجاحظ » لكن البحارة المغامرين قد نجحوا في كسب أراضي « بروفانس » وسواحل إيطاليا ، والأناضول ، وجزيرتي « صقلية » و « كريت » وعادت الجزيرة العربية إلى حالها قبل الإسلام . يتقاسمها بنو زياد في اليمن ، وبنو يعفر والجلنديون في الجنوب ، والطولونيون في الغرب ، مثلما تقاسم الإدارسة والأغلبة والطولونيون الشمال الإفريقي ، وآل حُكُم ما وراء القوقاز إلى بني « ساج » وحُكُم ما وراء النهر إلى بني « أسد » وخضع الشام للحكم الطولوني والحمداني .

ولكن الثقافة العربية الإسلامية كانت قد ازدهرت في القرن الميلادي التاسع ازدهاراً عجبياً فاق كل حد ، وتفوقت ، برغم التمزق السياسي في جسم الدولة العباسية ، على كل الثقافات المنافسة لها في زمانها بجهود المترجمين والمفكرين ذوي الأصالة والابتكار ، من المسلمين والوثنيين والتسطوريين واليهود والفرس والأتراك . ودوّنت مؤلفات عربية مشهورة في كل العلوم الطبيعية والرياضية ، والعقلية واللسانية ، والدينية والاجتماعية ، وكانت بغداد أزهى المنارات المضيئة ، تُرسل أشعتها في كل اتجاه ، وبخاصة في جنوب أوروبا . وكان الوافدون على مدائن المسلمين من التجار والوفود ، يقفون مبهورين أمام ازدهار الفنون في أرجاء العالم الإسلامي ، ويرون عالماً زاهراً بالعلماء الموسوعيين ، من أمثال : الخوارزمي ، والبتاني ، والرازي ، واليعقوبي ، والكندي ، والشافعي ، وابن حنبل ، وبالكتاب الذين يقيمون الجسور بين الدين والفلسفة والعلم والأدب ، والصفوة والعامّة من أمثال « أبي عثمان الجاحظ » .

الوداع

جاءت الطريقة التي ودّع بها « الجاحظ » دُنْيَا الناس ،
مُفاجئةً لأهل البصرة . كان « الجاحظ » وحيداً في غُرْفَتِهِ ، حينَ
زَحَفَ إلى قَاعَةٍ من قَاعَاتِ كُتُبِهِ ، في قَصْرِه الفسيح . وتحامل
« الجاحظ » على نفسه جالساً ، وشَبَّ متكئاً على الجدار ، ليصل
إلى رَفٍّ من رُفُوفِ كُتُبِهِ ، فانهارَتْ بجذبه ، فَوَقَّه ، الرفوفُ
والكُتُبُ ، فلفظَ أنفاسَه بينها .

ولم يبقَ من حديثِ لأهل البصرة ، إلا عن فضلِ الجاحظ ،
وعلمه وفكره وأدبه ، وساروا جميعاً في ودّاعه إلى مرقدِهِ
الأخير .

وفرغ الوراقون لتصنيف كُتُبِ للجاحظ ، بلغ عددها
ثلاثمائة وخمسين كتاباً ورسالة ، في : الفلسفة ، والاعتزال ،
والدين والسياسة ، والاقتصاد ، والتاريخ ، والجغرافيا ،
والطبيعيّات ، والرياضيات ، والعصبيّة ، وتأثير البيئة ،
والاجتماع ، والأخلاق ، والحيوان ، والنبات ، والأدب . وفي

ذروتها كانت كُتُبُه الخوالد : البيان والتبيين ، والحيوان ،
والبُخلاء ، والمحاسن والأضداد .

ومنذ ذلك الحين ، ظلَّ اسمُ « الجاحظ » وأدبه وعلمه حياً ،
وظلَّت مؤلفاته الباقية تُطبعُ إلى يومنا ، وبينها كُتُبٌ لم يؤلّفها
قط ، نسبها إليه الوراقون ، طلباً لرواجها بعد عصره . ولا تزال
الكُتُبُ والرسائل تُؤلّف إلى يومنا عن عميد كُتّاب العربية في
كلِّ العصور : أبو عثمان الجاحظ ، ولا يزال العلماء الميسرون
للعلم ، يحتذون (يحاكون) أسلوبه العلمي المتأدّب ، الذي
تتساوى فيه ألفاظه ومعانيه .



في عامِ مائة وخمسين هجرية ، سبعمائة وخمسة وسبعين
ميلادية كان ميلادُ : أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب
الجاحظ ، وفي عامِ مائتين وخمسة هجرية ، ثمانمائة وتسعة
وستين ميلادية كانت وفاته .

ولعلّ الأحياء من كُتّاب العربية وعلمائها ، يحتفلون بذكرى

الجاحظ ، في ختام عقد من العقود المئوية لميلاده أو وفاته ، فهي
ذكرى أديب عالم ، أو عالم أديب ، ملأ سمع الدنيا وبصرها ،
في زمانه وبعد زمانه ، ذكرى ندر أن يحظى بمثل خلودها سواه ،
بين العلماء والأدباء ، في كل اللغات .

رقم الايداع بدار الكتب

١٩٩١ / ٣٨٧٣

طابع الاصل التجاري - القاهرة - مصر

البحا حظ

عالم أديب . عاش في القرنين الميلاديين الثامن والتاسع .
ومارس الكتابة العلمية والأدبية والفلسفية . وترك وراءه
ثلاثمائة وخمسين كتاباً ورسالة في كل علوم زمانه . وابتكر
للعربية أسلوباً فريداً في النثر الفني المرسل . ومنج في كتاباته
بين العلم والدين والفلسفة والأدب . وألف كتاباً قيماً في

علم " الحيوان " كان هو اللبنة
الثالثة في علوم التاريخ الطبيعي
بعد كتابات " ديمقريطس " و " أرسطو "
فكان به الرائد العربي الأول
لعلماء الحيوان ، والتاريخ الطبيعي .
إنها قصة تثير الفخار . يقرأها
الصغار والكبار .

صدر من هذه السلسلة :

- | | |
|------------------|---------------|
| ١ - ابن النفيس | ٩ - الخوارزمي |
| ٢ - ابن الهيثم | ١٠ - الإدريسي |
| ٣ - البيروني | ١١ - الدميري |
| ٤ - جابر بن حيان | ١٢ - ابن رشد |
| ٥ - ابن البيطار | ١٣ - ابن ماجد |
| ٦ - ابن بطوطة | ١٤ - القزويني |
| ٧ - ابن سينا | ١٥ - ابن يونس |
| ٨ - الفارابي | ١٦ - الخازن |
| ١٧ - البحاحظ | |

مركز الأهرام للترجمة والنشر
مؤسسة الأهرام

التوزيع في الداخل والخارج : وكالة الأهرام للتوزيع
ش الجلاء - القاهرة

مطابع الأهرام التجارية - قلوب - مصر